الرسالة الخامسة

الهجرة .. السَّبيلُ لنصْرة الحَق

- دعوة التوحيد ، والشرك فى العبادة
- اضطهاد دعوة التوحيد بمكة
- السبيل إلى تأمين الدعوة
- فى دار الهجرة
- العودة إلى مكة ، أو الفتح المبين

obeikandl.com

obeikandl.com

دعوة التوحيد ، والشرك فى العبادة

كانت مكة المكرمة موطن الدعوة إلى دين الله ـ وهو الإسلام ـ لا لأنها فى شبه الجزيرة العربية ، ولا لأن الرسول محمداً عليه الصلاة والسلام من سلالة قبيلة هى إحدى قبائل العرب التى تسكن مكة والتى آلت إليها خدمة الكعبة وتحرص على شرف هذه الخدمة فيها . بل لأن مكة بها أول بيت وُضِعَ للناس لعبادة الله وحده ، وهو الكعبة ، ولأن إبراهيم بانى الكعبة أول رسول أُرسل من قِبَل الله جل شأنه بالإسلام ، ولأن الذين آمنوا برسالته كانوا أول المسلمين فى البَشَرية .

فهى المكان الأول لدعوة التوحيد . وهى المقام الأول للمسلمين . وهى البلد الأول الذى اختير لاجتماع كافة المسلمين ، لحج بيت الله وأداء مناسكه ، ولتمكين أواصر الأخوة بينهم على أساس من المساواة فى الاعتبار البشرى ، ومن الإيمان بالله وحده :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لاَ تُشْرِكْ بِى شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَالْقَآئِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ * وَأَذِّن فِى النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ * لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ ﴾ (١) .

فهنا القرآن الكريم يحدد مكان رسالة إبراهيم بمكة ، كما يحدد رسالته : بالدعوة إلى عبادة الله وحده ، بعد تطهير بيت الله من كل أثر للوثنية المادية الإلحادية ، وبنداء المؤمنين من وقت لآخر إلى اجتماع عام فيما بينهم فى بيت الله الحرام ، لتأكيد معنى الإيمان بالله وحده وآثاره من : الأخوة ، والمساواة ، وتبادل المنفعة والمودة .

والدعوة إلى الإيمان بالله وحده ـ التى تضمنتها رسالة إبراهيم عليه السلام ، أول رسالة لله جل شأنه إلى الإنسان ـ هى دعوة إلى الإنسان ليحقق « مستوى

---

(١) الحج : ٢٦ ـ ٢٨

الإنسانية » فيه ، ويحرص على عدم النزول عنه إلى مستوى آخر لكائن حى آخر لم يُكَرِّمه الله بالعقل مع الغرائز ، مثل ما كرَّمه هو .

والارتباط قوى بين عبادة الله وحده وتحقيق المستوى الإنسانى الفاضل فيه ، لا يشرك بعبادة الله أحداً ، وهو أشبه بالارتباط بين المقدمـــة ونتيجتها الضرورية ، أو بين السبيل وهدفه المتعين .

فالله سبحانه وتعالى بما له من صفات الكمال العديدة ـ التى وصف هو بها نفسه فى كتابه العزيز ـ يجعل عبادة المؤمن إياه طريقاً إلى القُربى منه . والقُربى منه جل شأنه ليست قُربى مكانية أو زمانية . وإنما هى قُربى فى المنزلة . وهذه القُربى فى المنزلة تتطلب من الإنسان العابد أن يتمثل فى ذاته صفات المعبود ، وأن يحقق منها فى نفسه ما يجعله قريباً منه ، وإن استحال على الإنسان ـ أى إنسان ـ أن يرتفع إلى مستوى القداسة أو الألوهية .

فإذا وصف الله نفسه بالعلم ، وبالخَلق ، وبالغنى ، وبالشدة ، وبالرحمة ، مثلاً ، فالقُرب إليه من الإنسان العابد إياه وحده هو : أن يسعى إلى العلم فى دقته ويقينه ، وإلى العمل المتقن فى إبداعه ، وإلى الغنى الذاتى بالقناعة وعدم السؤال ، وإلى الشدة على الضلال ومن يباشره ، وإلى الرحمة على المؤمنين العابدين حقاً لله وحده . وهكذا يتحولُ الإنسان العابد إلى إنسان نمى فى ذاته طاقات الإنسان العقلية . وهى الطاقات التى تجعل منه كائناً حياً متميزاً عما عداه .

ثم بالعبادات الإسلامية ومتابعة مباشرتها على وجهها الصحيح يضمن العابد الحيلولة دون شهواته وسيادتها على توجيه الذات . ومصدر هذه الشهوات هو غرائز النفس ، أو ما يُكَوِّن القسم الحيوانى فيه : فهو يضمن عن طريق الصلاة البقاء فى محيط وحدة الألوهية ، وعن طريق الصوم تحقيق القناعة واجتياز الأزمات والمصاعب النفسية والمادية ، وعن طريق الزكاة التنازل الحر عن المال وعدم الافتتان به فى الترف والعبث وشقاء الآخرين ، وعن طريق الحج تنمية روح المشاركة والجماعة ، وعن طريق الجهاد فى سبيل الله التضحية بالنفس ـ بعد التضحية بما تملك فى سبيل المبدأ والقيمة العليا ، وليس فى سبيـــل الشهوة

وما ينجذب إليه الإنسان فى متع الحياة الدنيا . أى أن الإنسان المؤمن بالله وحده يضمن لنفسه عن طريق هذا الإيمان : سلامة التفكير وصحة التوجيه وعدم النزول فى مجال الغرائز ، على نحو ما يصنع كائن حى آخر يشاركه فى الحيوانية وطاقاتها .

إن العابد لله وحده إذن يحتفظ بمستوى الإنسانية فيه ، ويكرم بذلك خلقه الذى خلقه الله عليه من تميزه على غيره ، ومن تسخير الأرض له يبتغى فيها من فضل الله ، ويصل عن طريق نعمها إلى الله وحده .

والقرآن الكريم يطلب إلى إبراهيم عليه السلام ـ فى أول رسالة لله للإنسان ـ الدعوة إلى عبادة الله وحده فى صورة : « عدم الشرك بالله » ، وكأنه يطلب إليه استخلاص العبادة لله وحده من مطاردة الشرك بالله وبيان آثاره على الإنسان فى إنسانيته . ولـــذا يقول ـ بعد أن نهاه عن الشرك بالله فى قوله : ﴿ أَنْ لا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا ﴾ ـ : ﴿ وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴾ . فيأمره بتطهير بيت الله الحرام مما يحول دون صلاحيته للصلاة لله وحده والحج إليه . والذى يحول دون ذلك هو رمز الشرك .. هو رمز الوثنية المادية الإلحادية فى أصنام الحجر أو الإنسان .

ودعوة الإسلام إذن هى دعوة الحيلولة دون الوثنية المادية الإلحادية . هى دعوة الحيلولة دون سقوط الإنسان عن مستواه الإنسانى فى التفكير والتوجيه إلى مجال الغرائز ومصدر الشهوات وحدها .

وهنا يربط الإسلام ـ رسالـة الله منذ إبراهيم ـ فى دعوتـــه : بين الشرك أو الوثنية المادية الإلحادية من جانب ، وسقوط الإنسان عن مستواه الإنسانى من جانب آخر . فإشراك موجود آخر لله فى العبادة ـ وهو حتماً موجود مادى مُشَاهَد ، يُحَس ويُلمَس ـ معناه توفير الاحترام لغير الله ، والخضوع لمن يُرجي نفعه أو يُرجى منه دفع الضرر .

والموجود المادى المشاهَد موجود محدود بحكم ماديته . هو موجود ينتهى حتماً . وهو موجود إن كانت له طاقات على توصيل النفع أو الحيلولة دون الضرر لمن يعبده ، فهى طاقات محدودة بالزمان والمكان . ومعنى هذه المحدودية

فى الموجود المشاهَد الذى يُعبد من دون اللّه أن العابد له سينصرف عنه بعبادته إلى غيره يوماً ما ، مما يؤمل فيه النفع أو الضرر من جديد .

والانتقال بالعبادة من موجود مادى انتهى أثره فى النفع أو دفع الضرر إلى موجود آخر مادى يُعتقد فيه النفع أو دفع الضرر ، دليل على أمرين يحرص عليهما المشرك :

أولا : على رجاء النفع المادى أو دفع الضرر المادى فى المعبود .

ثانياً : على أن نقل العبادة من معبود الأمس إلى معبود اليوم ثم إلى معبود الغد أو بعد غد ـ هكذا ـ مرتبط بالمنفعة المادية وحدها ، دون ذات المعبود وما عليه من صفات .

وصاحب المنفعة المادية الذى يفتش عنها فى كل مكان لا يعنيه الطريق إلى تحصيلها ، ولا يعيبه أيضاً أن يكون تحصيلها على حساب الآخرين .. وعلى حساب حرماتهم ، وأموالهم ، ودمائهم .. فضلاً عن أن يتنازل للآخرين من ماله ، أو يقدم لهم العون إن احتاجوا إلى مال أو عون منه .

فهو « أنانى » تتحكم فى توجيهه شهواته ، وتبتعد عن تصرفاته سمات الإنسانية فى : المحبة ، والإخاء ، والسلام . ومقياسه الخُلقى هو الانتهازية ، وأسلوبه فى الحياة هو النفاق .

وإذا كان هذا هو مضمون دعوة الوحدة فى الألوهية ، وأثر الشرك فى العبادة فى دعوة إبراهيم عليه السلام فإن هذا المضمون لم يتغير على عهد الرسول محمد ﷺ. فالنداء الذى وُجِّهَ إلى المؤمنين برسالته عليه الصلاة والسلام فى قول القرآن الكريم فى سورة الحج نفسها :

﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * وَجَاهِدُوا فِى اللّه حَقَّ جِهَادِه ، هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِى هَـذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى

النَّاسِ ، فَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ ، فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾ (١) .

هذا النداء ـ فوق أنه يربط رسالة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام برسالة إبراهيم عليه السلام : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ، مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ، هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ﴾ ـ فإن ما جاء فيه من أوامر لله سبحانه وتعالى يحدد مضمون دعوة التوحيد وآثارها فى سلوك الإنسان على نحو ما جاءت به رسالة إبراهيم عليه السلام :

١ ـ فإقامة الصلاة هو مباشرة عبادة الوحدة فى الألوهية .

٢ ـ وإيتاء الزكاة هو مباشرة عبادة المال ، أو التنازل عن المال فى مشيئة واختيار .

٣ ـ وفعل الخير هو الإعطاء من إنسانية الإنسان ، ممثلاً فى مال ، أو مودة أو معاونة ...

٤ ـ والجهاد فى سبيل الله هو مباشرة عبادة التضحية بالذات فى سبيل القيم العليا .

وشأن الذى يفعل ذلك ليس هو شأن الأنانى ، ولا شأن الانتهازى ، ولا شأن المنافق ، وبالتالى ليس شأن المشرك فى عبادة الله . إنما هو شأن المؤمن بالله وحده .. شأن الإنسان الذى يحافظ على المستوى الإنسانى الفاضل فيه ويترفع عن السقوط فى مجال الشهوة ومصادرها من الغرائز الحيوانية .

* * *

اضطهاد دعوة التوحيد بمكة

لم يكن من شك ـ والمفارقة واضحة فى آثار الإيمان بالله وحده من جهة ، وآثار الشرك به سبحانه من جهة أخرى فى حياة الإنسان وتوجيهه ـ والمجتمع المكى ومجتمع الجزيرة العربية ، ومجتمع الرومان ، ومجتمع الفرس فيما وراء الجزيرة العربية ، وكلها مجتمعات شرك ووثنية مادية إلحادية ـ أن تتحول المفارقة بين الدعوة الجديدة الطارئة وواقع المجتمع البشرى القائم فى ذلك الوقت

---

(١) الحج : ٧٧ ، ٧٨

إلى رفض الدعوة الجديدة . وهى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام . وهى ليست جديدة على البشرية ككل ـ فقد سبق أن جاء بها إبراهيم عليه السلام ـ ولكنها جديدة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، بعد أن طغى الاتجاه المادى على الحياة الإنسانية فى عالم ذلك العهد ،لا فرق بين مكان ومكان فيه.

ورفض الدعوة الجديدة يقوم على اعتبارات تتعلق بتكوين المجتمع الإنسانى القائم آنذاك ـ فى شبه الجزيرة العربية أو فيما وراءها ـ وهى اعتبار الطبقات فيه . فقد كان يتكون من الأشراف أو أصحاب السيادة ، ومن العبيد أو الخدم . الذين يباشرون الخدمة لأسيادهم . ولم يكن هذا التكوين خاصاً بالمجتمع القبلى فى شبه الجزيرة ، بل كان أيضاً أساس المجتمع فى فارس ، وفى الامبراطورية الرومانية فى الشام على حدود شبه الجزيرة العربية .

وطبقة الأشراف أو أرباب السيادة فى المجتمع آنذاك ، تفقد امتيازاتها إذا هى تركت الشرك فى عبادة الله ، وانتقلت إلى عبادته وحده . فامتيازاتها هى امتيازات مادية فى الترف والمتع الحسية ، والحكم ، والجاه ، والتحكم . وبقاء هذه الامتيازات هو فى بقاء من عداها عبيداً وخدماً لها . إذ هؤلاء هم الذين يحصلون لهم وسائل الترف والمتع ، على حساب أنفسهم فى الاستمتاع بالحياة الدنيا وعلى حساب اعتبارهم الإنسانى فى الكرامة البشرية .

فليس مطلوباً من هؤلاء الأشراف والأسياد ، إن هم بقوا فى أحضان الشرك ، أن يراعوا آدمية عبيدهم وخدمهم ، ويخففوا من استمتاعهم بالمتع الدنيوية ليبقوا لهم ما يوفر لهم كرامتهم فى المعيشة والاعتبار البشرى .

ليس مطلوباً من هؤلاء الأشراف والأسياد ، إن هم بقوا فى دائرة الشرك ، أن ينظروا إلى العلاقة بينهم وبين عبيدهم وخدمهم على أنها علاقة إنسان بإنسان : توجب على كل منهم أن يكون حراً ، وأن يكون مساوياً فى الاعتبار البشرى للآخر ، وأن يكون التميز أو التفاضل بين إنسان وإنسان هو فى المستوى الإنسانى فى درجته ، وليس فى الانتساب إلى قبيلة أو طبقة .

ليس مطلوباً من هؤلاء الأشراف والأسياد فى المجتمع ، إن هم بقوا فى دائرة الشرك ، أن يكفُّوا عن عبثهم وفسادهم ومظالمهم ، وعن انتهاك الحرمات

واقتراف الفواحش ، ما ظهر منها وما بطن . لأن كل ذلك من نتائج ترفهم وبقائهم فى دائرة المادية وحدها .. لا يؤمنون إلا بما هو مادى ، ولا يحرصون على إيمان بشىء ما إلا بمـــا يجـــر عليهم منفعة مادية ، أو يدفـــع عنهم ضرراً مادياً ..

لذلك كله : رفض الدعوة الجديدة أمر منتظر . ومنتظر فحسب من هؤلاء الأشراف وأصحاب السيادة ، أو من هـــؤلاء المستكبرين فى المجتمع القائم آنذاك : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾(١) .

أما المستضعفون فى المجتمع القائم فإنهم لا يبدون معارضة إلا تحت تأثير المستكبرين ، أى تحت تأثير أسيادهم وأشراف القوم :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ (وهؤلاء الذين كفروا على هذا النحو هم المشركون)، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلاَ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ ، بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ * وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَاداً ﴾ (٢) .

فمن هذه المحاورة بين الطرفين نرى : أن خداع المستكبرين المستمر وتشويههم لعبادة الله وحده ، كانت بمثابة أمر للمستضعفين بأن يكفروا بالله ويجعلوا له شركاءَ وأنداداً .

والأمر فى مكـــة لم يقتصر على رفـض الـدعـوة الجديدة فحسب ، بل تعـدى هـــذا الـرفـض إلى إيـذاء صاحـب الدعـوة عليه الصلاة والسلام إيـــذاءً معنوياً وبدنيـــاً ، وإلى إهانتـــه ومحاولـــة تحقيـره ، والذين تسببوا فى الإيـــذاء ـ كما حملوا على الرفض ـ هم أيضاً المستكبرون أو الأشراف أصحاب السيادة .

---

(١) سبأ : ٣٤ ، ٣٥ (٢) سبأ : ٣١ ـ ٣٣

فقد اتهموه بالكذب ، والسحر ، والجنون .. وفيما اتهموه بهذه الصفات وغيرها يعبرون عن حقدهم عليه من جانب ، وعن مدى اضطرابهم وخوفهم على مستقبلهم فى مجتمعهم من جانب آخر ، فهو مستقبل غير مأمون ، وسقوط مجتمعهم مؤكد ، إن نجحت دعوته عليه الصلاة والسلام .

وينم عن زيادة حقدهم ، وزيادة قلقهم من الدعوة الجديدة ، محاولاتهم العديدة لإيذائه فى بدنه ، بعد تلك الاتهامات التى من شأنها أن تنال من معنويات الإنسان :

١ ـ فقد ألقى عقبة بن أبى معيط ـ بتحريض من أبى جهل ـ سلا جزور (مشيمة ناقة) بين كتفى الرسول ﷺ عند سجوده فى صلاة كان يؤديها عند الكعبة ، وبعد أن علمت فاطمة رضى الله عنها ـ عن طريق ابن مسعود رضى الله عنه ـ قدمت وطرحته عن أبيها عليه الصلاة والسلام ثم أقبلت على أبى جهل ومن معه تشتمهم ، وكانوا جلوساً يضحكون ويميل بعضهم على بعض ، ولما قضى عليه السلام صلاته رفع صوته ودعا عليهم (١) .

٢ ـ ومرة أخرى أقبل عقبة بن أبى معيط هذا ، والرسول عليه الصلاة والسلام يصلى فى حجر الكعبة ، فوضع ثوبه فى عنقه وخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر رضى الله عنه فأخذ بمنكبيه ورفعه عن النبى ﷺ وتمثل بما قاله رجل مؤمن فى آل فرعون يكتم إيمانه عندما قال فرعون : ذرونى أقتل موسى وليدع ربه : ﴿ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ من رَّبِّكُمْ ، وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ﴾ (٢) .

٣ ـ وفى السنة العاشرة من بعثه ﷺ فى شوال بعد موت خديجة وأبى طالب ، اشتد عليه وعلى المسلمين بصفة عامة أذى الكفار الوثنيين الماديين ، ذهب لبنى ثقيف بالطائف يعرض عليهم الإسلام ، رجاء أن يسلموا فيعاونوه على تبليغ رسالته فأبوا وهزأوا به .

---

(١) كتاب التاج جـ ٤ ص ٤١١ ـ ٤١٢ (٢) غافر : ٢٨

ولما انصرف عائداً إلى مكة أغروا به عبيدهم وسفهاءهم وانتظروه فى مضيق فى الطريق وأوقعوا به كل أذية حتى سالت الدماء من جسمه ، ثم تركوه ورجعوا ، ولم يكن معه إلا مولاه زيد بن حارثة .

* * *

السبيل إلى تأمين الدعوة

وكما أُوذى الرسول عليه الصلاة والسلاة أُوذى المؤمنون به ـ وهم من المستضعفين ، إلا قليلاً ـ بسبب هذه الدعوة الجديدة والإيمان بها . ولم يكن هناك من سبيل للإبقاء على هذه الدعوة إلا هجرة المؤمنين بإيمانهم من مقر الدعوة إلى بلد آخر ، هجرة مؤقتة ، إلى أن يعز الله المؤمنين وتصبح كلمة الله هى العليا .

ففى الهجرة حماية للإيمان من الضعف والمهانة ، ووقاية للمؤمنين من الإيذاء والتنكيل بهم . ولم يكن هناك من سبيل لوقاية المؤمنين أنفسهم من الاضطهاد والتتبع عدا الهجرة ، سوى التنازل عن الإيمان بالله الواحد والعودة إلى «الاستضعاف» عن طريق الشرك والوثنية المادية . وهذا ما لم يكونوا مستعدين له بحال من الأحوال بعد إيمانهم . فالإيمان بالله هو فى الوقت نفسه إيمان بحياة الإنسان وبنصر الإنسان على الذل والظلم والعدوان . هو الإيمان بمستقبل الإنسانية ، ومستقبل القيم العليا ، مهما اشتد ظلم الوثنية المادية وزاد طغيانها .

ولم يجد المؤمنين بدأ ـ وبالأخص بعد أن اشتد ضغط الكفار عليهم ، منذ وفاة خديجة وأبى طالب فى السنة العاشرة من البعثة ـ من الهجرة إلى البلاد المجاورة . وبقى الرسول عليه الصلاة والسلام وبعض المستضعفين معه بمكة يدعون للحق فى تحد لقوى الباطل وطغيان الوثنية المادية . حتى كانت مؤامرة المستكبرين أصحاب الشرف والسيادة فى القبائل العربية بمكة وفيما وراءها ، على الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهى تلك المؤامرة التى يجملها قول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ

كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ (١) .

فقد بيتوا العزم على واحد من ثلاثة : إما الحبس والاعتقال ،أو القتل، أو النفى من مكة إلى مكان لا يُعرف . وبواحد منها يجمدون الدعوة ويوقفونها عند حدها الأدنى الآن ، حتى تضمحل وتتلاشى بعد ذلك .

وقد عَبَّرَ القرآن الكريم عن هذه المؤامرة أو هذا الاتفاق المبيت بـ « المكر » والأصل فى معنى المكر الشر والسوء . ولذا وصف القرآن الله فى مكره ـ وهو تدبير الله لوقاية رسوله عليه السلام من هذه المكيدة ـ بقوله : ﴿ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ . إذ الله سبحانه وتعالى لوقايته رسوله الكريم من مؤامرة المشركين ، قبل أن تكمل الدعوة ويتم لها السند من مجتمع مؤمن قوى ، يريد خير البشرية . لأنه يبغى رفع الطغيان المادى من طريق الإنسانية بتمكن هدايته .

وعندئذ ـ أى عند تبييت الوثنيين الماديين المكيدة للدعوة الإسلامية ـ أذن الله للرسول الكريم بالهجرة . وهجرته عليه السلام لإنقاذ دعوة الحق ليست وحيدة فى حياة الدعوة إلى الإيمان . على معنى أنها تتكرر فى حياة المؤمنين ، إن أصيبوا بأزمة تُنذر بفناء الإيمان بالله ، وبالقضاء على المؤمنين . بل على من يؤزم من المؤمنين ، فى جهة ما ، فى إيمانه أن يهاجر وقاية لإيمانه بالله وحده .

وإذا كان الله عز وجل يؤاخذ من لا يؤمن بالله وحده بسبب استضعافه فى قومه ، طالما كان يمكنه الهجرة فى أرض الله ، وعندئذ تتاح له فرصة الإيمان بغير اضطهاد ، فإنه بالأولى يؤاخذ من يحمل على ترك إيمانه استكانة للمستكبرين فى مجتمعه من الوثنيين الماديين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ، قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ، فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ، وَسَاءَتْ مَصِيراً ﴾ (٢) .

---

(١) الأنفال : ٣٠ (٢) النساء : ٩٧

إنّ الهجرة عند أزمة الإيمان هى الحل المؤقت لثبات الدعوة إلى الحق :
﴿ وَمَنْ يُهَاجِرْ فى سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فى الأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً ، وَمَن يَخْرُجْ من بَيْتِه مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِه ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً ﴾ (١) .

وفى هجرته عليه السلام إلى يثرب (المدينة) ـ بعد أن أذن الله بالهجرة إليها ـ اتخذ ، بجانب عناية الله له ، الحيطة فى طريقها :

١ ـ فاستخبر عبد الله بن أبى بكر ، مدة مكثه ثلاث ليال بغار « جبل ثور » مع الصدِّيق أبى بكر رضى الله عنه . فكان عبد الله يقوم بالحراسة على الغار ليلاً ، ويجمع بمكة نهاراً أخبار المكايد التى يدبرها المستكبرون الوثنيون الماديون ، ويوصلها إلى الرسول وصُحبه عند عودته فى المساء .

٢ ـ وكلف عامر بن فهيرة ـ مولى أبى بكر ـ بالتمويه بواسطة الشياه التى كان يتردد بها على الغار .

٣ ـ كما استأمن رجل آخر واسمه « عبد الله بن أريقط » ـ لم يسلم بعد من قبيلة بنى النزيل ـ على أن يكون دليلاً فى الطريق إلى يثرب ، وأن يأتى إليهما فى الوقت المحدد ، بعد مضى ثلاث ليال من ترك مكة ، ومعه الركائب التى سلمها إليه أبو بكر .

وبهذه التدابير استنفد عليه الصلاة والسلام ما يمكن لإنسان أن يفعله فى تأمين رحلته الخفية من خطر المكيدة من أعدائه ، أما عناية الله فقد تجلت فى قدرته ﷺ على الثبات ، وفى اطمئنانه إلى نصرة الله إياه ، وهو ثبات الإيمان القوى ، واطمئنان المؤمن إلى وجود الله بجانبه ، طالما هو يخلص لله وحده فى إيمانه وطاعته : ﴿ إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِه لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ﴾ (٢) .

ونصر الله مقترن دائماً بنصر المؤمن بالله للإيمان به ، وجنود الله التى لا تُرى

---

(١) النساء : ١٠٠ .

(٢) التوبة : ٤٠ .

هى جنود الإيمان من : الثبات على الحق ، ومن السكينة عند الشدائد ، والصبر عند الأزمات ، وجنود الله التى لا تُرى فى واقع أمرها هى جنود الإيمان بالله إذا قوى وملك على المؤمن أمر نفسه .

* * *

فى دار الهجرة

كانت الهجرة طريق النصر النهائى لدعوة الحق وكلمة الله : ﴿ وجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ، وكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، واللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) . فيما يذكره القرآن الكريم من نهاية مراحل النصر للرسول عليه الصلاة والسلام ، مبتدئة بالإذن والهجـــرة ، ثم بحمايته فى طريقها ، ثم بإعزازه بتجمع المؤمنين فى «يثـرب » على كلمة الله ثم بفتح مكة والعودة إلى موطن الإسلام ومقر أول بيت لله .

فرسول اللهﷺ عندما بلغ « يثرب » وأقام فيها ثمانى سنوات ونصف السنة أسس مجتمعاً مؤمناً بالله ، زادته تجاربه فى احتكاك المؤمنين فيه بأعدائهم المشركين قوة ومنعة وعزة ، بحيث أصبحوا بإيمانهم أقوى منهم بأعدادهم .

ومر على المجتمع الإسلامى بالمدينة عدة تجارب :

(أ) التجربة الأولى : تآخى المهاجرين والأنصار .. تآخى أولئكم المؤمنين الذين قدموا من مكة وقاية لإيمانهم بالله ، مع هؤلاء المتوطنين فى المدينة ممن أسلموا وبايعوا الرسول عليه الصلاة والسلام على حمايته ، وإن لم يبايعوه على مقاتلة العدو معه . وهى تجربة قلما تحدث فى تكوين مجتمع بشرى فى آثارها من التضامن والتماسك والإيثار :

﴿ والَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ والإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ولَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا ويُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ ولَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ، ومَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) التوبة : ٤٠ (٢) الحشر : ٩

فهؤلاء المقيمون بالمدينة ـ هم الأنصار ـ لم يستقبلوا إخوانهم المهاجرين من مكة إستقبال صافى الحب في قلبه فحسب ، بل أضافوا الى هذا الحب الخالي من الشوائب إيثارهم فى حوائجهم المادية ، رغم أنهم هم أنفسهم في حاجة إليها : لهم ولأهليهم . فكانوا جميعاً مؤمنين حقاً. أولئكم المهاجرون لم يضعف إيمانهم رغم إضطهادهم ، وهؤلاء الأنصار راعوا إخوانهم في الإيمان بالله حق رعايتهم :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (١).

وقد استمرت تجربة التآخي في المجتمع الإيمانى الجديد بيثرب تباعاً ، فى نتائجها الإيجابية . فمن جاء بعد المهاجرين الأول وانضم إلى المسلمين في يثرب ، انضم إليهم جميعاً وهو لا يحمل في نفسه إلا روح الأخوة الصادقة لهم، وكل هدفه في حياته أن تبقى هذه الروح سائدة بين المؤمنين جميعاً :

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (٢).

(ب) التجربة الثانية : تجربة النجاح والهزيمة في لقاء الأعداء فى الخارج.

فقد التقى المؤمنون وهم قلة في عددهم ، ولكنهم قوة فى إيمانهم ، بأعدائهم المشركين وهم كثرة فى عددهم ومواردهم ، بـ « بدر » وهو أول لقاء بين الطرفين منذ هاجر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يثرب وأراد ﷺ بهذا اللقاء أن يرهب المشركين ويظهر لهم وجود المؤمنين كحقيقة واقعة كما أراد أيضاً أن يختبر الأنصار ، إذ قد بايعوه علي حمايته هو ، دون مشاركته في مهاجمة الأعداء في القتال .

وذهب المؤمنون إلى « بدر » وإيمانهم بالله فوق مستوى الدنيا : من متع وأموال ، وأولاد ، وأنفس ، وفاجأوا أعداءهم عند عودتهم من الشام ، وكان النصر للمؤمنين بسبب قوة إيمانهم من جانب ، ولعنصر المفاجأة لديهم من جانب آخر ، وكان نصر المؤمنين نصراً له قيمته الأدبية على المؤمنين أنفسهم ، وعلى

---

(١) الأنفال : ٧٤ (٢) الحشر : ١٠

أعدائهم ، كما كان لهم حظ من الغنائم المادية لا بأس بها ، وبالأخص أنهم كانـــوا قلة فى العدد يوم ذاك ، وأن ما يحملـه الأعداء فى رحلتهم هذه من متاع ـ قصد به التجارة ـ كان كثيراً .

وقد نوَّه القرآن الكريم بالنصر في هذه الموقعة فيما يقوله : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ (أى قلة)، فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١) . كما حدد آثار هذا النصر فيما يذكره : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم به ، وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عند الله العَزِيزِ الْحَكِيمِ * لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَآئِبِينَ ﴾ (٢).

وأوضح إذن أن قيمة هذا النصر :

أولاً ـ بالنسبة للمؤمنين : يكمن فى أنه بشارة لهم ، وفى تطمين قلوبهم ، فمع قلة عددهم استطاعوا أن يحققوا النصر على أعدائهم ـ وهم كثيرون ـ وذلك بفضل إيمانهم بالله ، وكذلك سيتم لهم النصر على الأعداء ، طالما إيمانهم بالله فوق الدنيا وما فيها ، فالله سبحانه وتعالى عزيز الجانب لا ينال منه موجود آخر ، وهو بجانب المؤمنين به يؤيدهم بنصره .

ثانياً ـ بالنسبة للمشركين : إما أن يبيد منهم فريقاً أو ينال من نفوسهم ومعنوياتهم فيعودون مهزومين خائبين ، وليسوا كما كانوا أصحاب بأس وقوة .

والله سبحانه وتعالى أراد أن يتضمن نصـــر المؤمنين بـ « بدر » أسباب هزيمتهم فى الموقعة التالية لها ، وهى موقعة « أحد » فكثرة الغنائم بـ « بدر » كانت فى حقيقة أمرها إغراءً وفتنة لمستوى إيمان المؤمنين فى « أحد » . فالمؤمنين ـ ومعظمهـــم من المستضعفين ـ لم يروا أسلاباً ومتعاً مباحة لهم من قبل ، على نحو ما رأوها فى « بدر » . وربط بعضهم فى تصوره لقاء الأعداء بالحصـول على الغنائم .

وانتقل مركز الغنائم فى تصور هذا البعض إلى الهدف الأول ، بينما تزحزح النصر للإيمان ـ لذات الإيمان ـ إلى صف الهدف الثانى .

---

(١) آل عمران : ١٢٣ (٢) آل عمران : ١٢٦ ، ١٢٧

وإبتلاء الله للمؤمنين بـ « بأحد » ابتداءً من نصر الله لهم فى «بدر» وظهر جلياً فقط فى « أحد » ذاتها . نقرأ قـــول الله تعـــالى فيما جـــاء بخصوص « أحد » : ﴿ ولَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ ﴾ (١).. أى لقد صدقكم الله وعده بالنصر ، وكان نصره إياكم عندما كنتم تستأصلون هؤلاء الأعداء وتبيدونهم فى لقائكم بهم ـ أى عندما كان يسيراً عليكم أن تردوهم على أعقابهم ـ كان ردكم إياهم بسبب ضعف مقاومتهم أو بسبب مفاجأتهم بقوتكم النوعية ، بمثابة استئصال وإبادة لهم ، لا عناء فيها على الإطلاق .

.. ﴿ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِى الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَآ أَرَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ ، مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ (٢) .. أى كان نصر الله لكم منذ « بدر » إلى أن عصيتم أمر الرسول عليه الصلاة والسلام عند التهيؤ للقاء الأعداء فى « أحد » وعندما وجه إليكم النداء بقوله : « لا تبرحوا .. إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا ، وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تعينونا » وتنازعتم فلم تحزموا الأمر فيما بينكم بالثبات وعدم الانتقال من الجناحين ، كأمر رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وذلك بسبب ما لاح لكم أول المعركة من فرار الأعداء وتركهم بعض الأسلاب وراءهم ، فسرعان ما تركتم مواقعكم سعياً وراء تحصيل هذه الأسلاب .. أى بسبب ما أراكم الله ما تحبون من متع الدنيا من الغنائم لدى الأعداء ، وبذلك اختلت صفوف المؤمنين فى المعركة وعندئذ أتيحت الفرصة لخالد بن الوليد ـ وكان على رأس الفرسان فى جيش المشركين ـ أن يجد فرجة واسعة فى وضع المؤمنين فنفـــذ منها إلى ضربهـــم وتفـــريقهـــم ، حتى أنـــه لم يبـــق من المـــؤمنين ثابتاً مع رســـول الله عليه الصلاة والسلام إلا قلـــة من المهاجرين وعدد أكثر قليلاً من الأنصار .

وبانصراف بعض المؤمنين من أمكنتهم ـ تحت تأثير المنافقين بينهم ـ كانت فرصة النصر لأعداء المؤمنين والهزيمة لهم .

---

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) آل عمران : ١٥٢

وبثبات القلة من المؤمنين ، وفى مقدمتهم رسول الله عليه الصلاة والسلام ، كان استمرار مجتمع المؤمنين ، واستمرار الدعوة إلى الحق ، واستمرار رسالة الله فى خلقه من البشر : ﴿ مِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ﴾ (١).

وإذا غفر الله للمؤمنين إتباع ميلهم إلى الغنائم فى موقعة « أحد » ـ تحت تأثرهم بتلك الغنائم التى أحرزوها فى « بدر » ـ فيما تُعَقِّب به الآية فى قول الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ، وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢). إذا كان قد غفر الله للمؤمنين انصرافهم عن أعدائهم فى ميدان القتال فى « أحد » بسبب الدنيا ، فذلك لأنه جل شأنه أراد هزيمتهم فى الثانية ، كما أراد نصرهم فى الأولى . إذ بغير الهزيمة والنصر معاً لا يعرف الإنسان أخطاءه ، وبالتالى لا يتجنب الأخطاء لأنه لا يعرفها عندئذ . والابتلاء كما يكون بالهزيمة يكون بالنصر .

ومن اقتران الهزيمة فى « أحد » بالنصر فى « بدر » وقف المؤمنون بالله فى وضوح على سبب النصر ، كما وقفوا أيضاً فى وضوح على سبب الهزيمة .

أما سبب النصر فهو الإيمان بالله ، فى ترفع عن إغراء متع الدنيا .

وأما سبب الهزيمة فهو النزول إلى متع الدنيا واستهدافها .

إذ عندما نزل المؤمنون فى « أحد » إلى الدنيا ومتعها لم يتفوقوا على المشركين فى التغاضى عن الهدف المادى بيننا تفوق المشركون عليهم فى الكم والعدد . وأصبحت المعركة آنئذ هى معركة الكم والعدد ، دون النوع .

وعندما ارتفع المؤمنون فى « بدر » عن متع الدنيا تفوقوا على المشركين بما لم يعرفه هؤلاء فى حياتهم وهو الإيمان القوى بالله ، فكان سلاح المؤمنين أمضى من سلاح المشركين ، وهو العدد لا غيره . والعدد أصم فى مقابل النوع ، ولذا هو مقلول ومغلوب .

(جـ) أما التجربة الثالثة : فهى التجربة مع أعداء الإيمان فى الداخل . وهى أخطر تجربة يمر بها أى مجتمع إنسانى يقوم على أساس الإيمان . وهى

---

(١) آل عمران : ١٥٢ (٢) آل عمران : ١٥٢

ليست لذلك تجربة المجتمع الإسلامى وحده . إنها تجربة «الهدف» من الإيمان . هل الإيمان غاية .. أم وسيلة ؟

إن الذين يدخلون فى الإيمان لا يدخلونه جميعاً من أجل الإيمان فى ذاته ، فالإيمان فى ذاته يتطلب التضحية بل والفناء فيه .. التضحية بالمال .. التضحية بالولد .. التضحية بالنفس .. التضحية بكل متع الدنيا . كما يحمل على ترقب الأزمات والشدائد .. أزمات الحياة فى عمرها ، وشدائد أعداء الإيمان فى شراستهم ، وعدم ضميرهم ، وأنانيتهم ، وكثيرهم اللاإنسانى .

بل قد يدخل البعض فى الإيمان ـ قل أو كثر ـ لهدف آخر عن طريق الإيمان .. لهدف الدنيا فى جاهها ، ومتعها ، وزينتها ، وزخرفها . ومن يدخل الإيمان لا لذات الإيمان ، لا يمتنع من الكيد للإيمان ، وأصحاب الإيمان ، والقوامين عليه ، إذا تحدد الإيمان سبيلاً لجاه الدنيا ، ومتعها ، وزينتها .

من يدخل الإيمان لا لذات الإيمان لا يعرف الوسيلة الخُلُقية ولا الوسيلة الإنسانية فى فعله وتصرفه :

١ ـ يتجسس ، ويستخبر لصالح أعداء المؤمنين .

٢ ـ يشيع الضعف ، ويعمل على الفتنة بين المؤمنين .

٣ ـ يشكك فى القيم العليا التى يدعو المجتمع المؤمن إليها .

٤ ـ يخلق الشائعات وأسباب الفرقة بين المؤمنين ...

وغير ذلك مما يُقَوِّض المجتمع المؤمن ويعود بأفراده إلى الاختلاف فالتنازع والتخاصم ، كما يعود يقيناً إلى الضعف والهوان . وهو فى كل ذلك غير مكشوف ، لأنه مستتر بإيمان « ظاهر » أو لأنه « منافق ».

ومجتمع «يثرب » ـ فى دار الهجرة ـ ابتُلى بالنفاق . ولم يكن من أسباب الهزيمة فى « أُحد » هو فقط نزول بعض المؤمنين مجال المتع الدنيوية وسعيهم إلى تحصيلها عند أول بادرة لظهور المؤمنين على المشركين فى القتال . وإنما كان مع ذلك عمل المنافقين برياسة عبد الله بن أُبَىّ فى ثلاثمائة من أنصاره ، وتشكيكه فى نصر الله للرسول عليه الصلاة والسلام ، ودعواه : أن الذين قُتلوا على يد المشركين لو لم يخرجوا للقتال تلبية لنداء الرسول لبقوا أحياء .

وفى وصف القرآن الكريم للمؤمنين ـ فى صدق وفى زيف ـ بعد تفكك جبهاتهم فى قتال « أحد » ما يُصَوِّر دور المنافقين ، وهو دور إشاعة الهزيمة والحرص على الحياة ، وترك الرسول عليه السلام فى مواجهة المشركين من غير سند حوله إلا من قلة مؤمنة مخلصة ، يقول الله تعالى :

﴿ إِذْ تُصْعِدُونَ (أى تهربون فى صعيد الأرض أو تصعدون على جبل « أحد » بعد أن كنتم ببطنه) وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ (لمساندته) فِى أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ (أى نالكم ما سبب غمكم وحزنكم مرة بعد أخرى : فحرمتم من الغنيمة بعد أن سعيتم إليها ، وهُزمتم بعد أن انتصرتم فى السابق) لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ (من الغنيمة) وَلَا مَآ أَصَابَكُمْ (من الهزيمة)، وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ * ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنكُمْ ، وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ (وهى طائفة المنافقين) يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ ، يَقُولُونَ هَلْ لَّنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَىْءٍ ، قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ، يُخْفُونَ فِى أَنفُسِهِمْ (من الحقد على المؤمنين) مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ (من الحرص على الإسلام والمشاركة فى الجهاد)، يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ مَا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ، قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ، وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ (مما تضمرونه) وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ (من إيمان ونفاق) ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ (١) .

والقرآن إذ يصف دور المنافقين فى هزيمة « أحد » يبرر الهزيمة بأنها تستهدف :

وضع حد لما مضى ، فلا ينبغى أن يكون موضع أسف يشد النفوس والأذهان إليه فترة أو فترات أخرى .

وبأنها أيضاً لتمييز المؤمن الصادق فى إيمانه من المنافق المتستر وراء إيمان مظهرى .

---

(١) آل عمران : ١٥٣ ، ١٥٤

والجماعة المؤمنة فى حاجة ماسة إلى السير قُدماً ـ بعد أن تتخذ العبرة فقط مما وقع ـ فى سبيل الحق ، وتثبيت أقدام الإيمان بالله ، كما هى فى حاجة أكثر إلى تنقية داخلها من عناصر الهزيمة والفرقة والضعف .

ولم يكن دور النفاق وتفاعل إضعاف المؤمنين وقت الاشتباك فى القتال مع أعدائهم بل ربما كان أقوى منه فى السلم عنه فى الحرب . ولذا جاء تحذير القرآن الكريم للمنافقين فى صورة نهائية ، لا يأتى بعد ، إلا الإبادة لهم واللعنة عليهم فى قوله :

﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلاَّ قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ ،أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ ، وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ (١) .

ثلاث تجارب اجتماعية مر بها « مجتمع يثرب » فى دار الهجرة . وهى التجارب الضرورية لأى مجتمع إنسانى أريد له القوة وأن يحمى نفسه فى الداخل والخارج على السواء من عوامل الضعف ، وهى تجارب : التآخى والتعاون ، والنصر والهزيمة فى لقاء الأعداء ، والنفاق والزيف فى الإيمان . تجارب يقف فيها على أسباب القوة فيتمسك بها ، وعلى أسباب الضعف فيتجنبها. وبلغ بهذه التجارب الرشد الاجتماعى ، بحيث أصبح آمناً على نفسه وعلى مستقبله ، كما أصبح قادراً على حماية مبادئه من الاعتداء عليها .

* * *

العودة إلى مكة ، أو الفتح المبين

خرجت الدعوة من مكة وهى ضعيفة فى سندها ، وتعود إليها اليوم وهى قوية فى بأسها . كانت بالأمس يحملها مستضعفون ، وهى اليوم يحملها مجتمع قوى رشيد .

---

(١) الأحزاب : ٦٠ ـ ٦٢

ويوم أن خرجت من مكة خرجت طلباً للحماية . ولكنها لم تخرج منها للبقاء إلى الأبد خارجها .

إنها وُلِدَت فى مكة ، مهد الرسالة الأولى للإسلام ، رسالة إبراهيم عليه السلام ، ولا بد أن تعود لها من جديد بعد أن اشتد ساعدها وقويت شوكتها واستطاعت أن تُكَوِّن لها حماية ذاتية .

إنها لا بد أن تعود إلى مكة ، وإلى بيت الله ـ أول بيت وُضِعَ للناس ـ لتقضى على الوثنية المادية الإلحادية التى تجسمت فى أصنام وأوثان عديدة ...

لا بد أن تعود إلى بيت الله الحرام لتخلصه لعبادة الله وحده ...

لا بد أن تعود إلى بيت الله الحرام لتربط خاتمة الرسالات الإلهية بأولاها .. لتربط رسالة محمد بن عبد الله برسالة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام .. لتربط الإنسانية فى مهدها بالإنسانية فى رشدها ، وتحيى شعائر الله فى بيته . التى كان يحييها أبو الرسالات ، ولترمى « الجمار » فى وجه الباطل إلى الأبد .

إذ العودة إلى مكة ستكون نصراً أبدياً للحق ، وهو عبادة الله وحده ، ومستقبل الدعوة إليه جل شأنه : « لبيك اللّهم لبيك ، لا شريك لك لبيك ... » تُرسل صداها فوق عرفات إلى العالم كله . وعندئذ : « لا هجرة بعد الفتح » . أى وعندئذ لا تتكرر الهجرة الجماعية من مكة قصد حماية الحق . فالحق مستقر فى بيت الله هنا إلى يوم تقوم الساعة .

وبعد ثمانى سنوات ونصف السنة من وجود مجتمع « يثرب » بعد الهجرة إليها عزم الرسول ﷺ على العودة إلى مكة وكسر شوكة الشرك فيها ، وتخليص بيت الله الحرام من كل أثر له هناك . فكانت العودة ، وكان نصر الله النهائى بفتح مكة . وهو نصر نهائى لرسالة الإسلام : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ، إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً ﴾ (١) .

---

(١) سورة النصر

ورسالة الإسلام إذن ابتدأت فى مكة على عهد إبراهيم ، وانتهت إليها على عهد محمد ، عليهما الصلاة والسلام ، بعد أن طاف بها الرسل فى مجتمعات العالم القديم .

ورسالـــة الإسلام إذن هى دعـوة التوحيد .. دعوة عبادة إله واحد .. دعـوة عبادة الله وحده .. دعوة التخلص من الوثنية المادية والإلحاد المادى .. كانت كذلك يوم وُلدت فى مكة على عهد إبراهيم ، واستمرت كذلك على عهد الرسل فى مجتمعات العالم الإنسانى ، وهى كذلك يوم أن استقرت من جديد فى مكان ولادتها على عهد الرسول محمد بن عبد الله ﷺ .

ودعوة الوحدة فى العبودية .. هى دعوة الكرامة الإنسانية .. هى دعوة القيم الإنسانية العليا .. هى دعوة سيادة الإنسان على الهوى والشهوة فى مواجهة الوثنية المادية الإلحادية . والوثنية المادية هى الاتجاه إلى : الأنانية فى طغيانها ، والمادية فى إلحادها ونفاقها وانتهازيتها .. هى الاتجاه إلى الشرك وجرائمه الاجتماعية ضد حريات : المال ، والنفس ، والعِرض .

روحية ، ومادية ، ومشاركة إنسانية وأنانية ، وعدل وطغيان ، سلام واعتداء ، وكرامة ومذلّة ، واستقامة ونفاق ، ووفاء وغدر ، وإنسانية ولا إنسانية .. تلك هى رسالة الإسلام فى مواجهة الشرك والوثنية المادية .

وقصة الهجرة هى قصة الإنسان فى إيمانه بالحق وبالله ، وفى اعتداء الباطل عليه ، مرة فى صورة النفاق ، وأُخرى فى صورة الشرك والوثنية المادية ، ثم فى نصره أخيراً على قوى الباطل ضده .

هى قصة تتكرر . وهى وُجِدَت على عهد الرسول لتكون الدليل الهادى بعده على نهاية الصراع . وُجِدَت لتكون بشيراً ونذيراً : بشيراً للحق ونذيراً للباطل ، مهما كان ظلامه دامساً .

إن الوثنية المادية المعاصرة والالحاد المادى الجارف فى عالم الإنسان اليوم ، ليس له من مصير غير مصير الوثنية المادية فى مكة يومذاك ، وهو مصير الهوان والضعف .

ولكن لن يتحقق هذا المصير إلا إذا اشتد الإيمان بالله ، كما اشتد وقوى فى « مجتمع يثرب » . ولن يكون كذلك إلا إذا تحقق قول رسول الله ﷺ يوم أن صلى الجنازة على شهداء «أحد» ـ بعد ثمانى سنوات من استشهادهم ـ وخطب بعدها قائلا :« إنى لست أخشى عليكم أن تشركوا ، ولكنى أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوها » (١) .

... وإلا لا يكون للإيمان ، ولا يكون للمؤمنين نصر إن هم تنافسوا الدنيا ، كما لم يكن من حظ المؤمنين فى «أحد» سوى الغم والهزيمة .. غم ضياع الدنيا التى تلهفوا عليها وظنوا أنها فى أيديهم ، وحزن الهزيمة التى أصابتهم من أعدائهم .

* * *

(١) فى رواية البخارى ـ التاج جـ ٤ ص ٤٢٤

obeikandl.com